قصة قصيرة

الصدى والعنكبوت

أحمد سويد

حسان. ياحـ.....سان. ن. ن. ن.

.... كان النداء ينطلق من كل جهة من جهات القرية فتردده الوديان ويرتد صداه مرتطماً بالسفوح حاملاً معه رعشة الرهبة، رهبة ليل أعمى يحبل ظلامه الكثيف بكل احتمالات المفاجئات المرعبة التي تسكن عادة سرائر الوديان.

.... وكانت اضواء المشاعل المتراكضة من كل ناحية تحاول بجهد يغالبه الوهن أن تنتهك، هي وأصداء النداء المذعور كثافة السواد وكثافة الرهبة.

حسان. ياحـ.....سان. ن. ن. ن.

... وحسّان هو ابن المختار، بل وحيده الذي جادت به عشرات النذور بعد انتظار طويل، وتكفّلت بحراسته عشرات التمائم جمعتها أمه الملهوفة على خلف، من نخبة مجرّبة من أصحاب الكرامات. حسّان هذا، كما يقول تقرير العجائز الأولى، كان في ضيافة جدته، في منزلها الكائن في الطرف الشمالي من القرية، وقد خرج من عندها كما تؤكد قبل غياب الشمس بعد أن ملأت جيوبه بالجوز واللوز والزبيب، ولكنه لم يصل إلى بيت أبيه... يا ذلي عليه... فصّ ملح وذاب...

..... ورغم طابع السرية القصوى الذي تحاول عجائز القرية المكدسات في صالون بيت المختار، أن يضفينه على التقرير الأوليّ العاجل، فإن فحواه كان يصل تباعاً إلى سمع المختار الذي كوّمه الحزن فوق أحد المقاعد، فينتفض رغم أن الرعب من المجهول كان قد بدأ يستنزف قواه. ينتفض وترتعش شفته السفلى ويرقص حاجباه الكثيفان من فرط الانفعال الجواني وقسوة حساب الضمير، ويحس بجفاف شديد في الفم، وبقبضة فولاذية تضغط على صدره بلا رحمة، فحسّان لم يكن في الحقيقة ضيفاً على جدته، بل كان لاجئاً إليها في انتفاضة احتجاجية على ما اعتبره، لفرط الدلال والدلع، قسوةً وظلماً من أبيه. ألم يفرك أبوه أذنه موبخاً لأن علاماته الفصلية في المدرسة كانت دون المستوى الذي يليق بإبن المختار؟

«لنفرض أن فركة الأذن هذه كانت موجعة... فهل كان من حسن التهذيب أن «يزعل» حسان ويهرب لأني أردت له الخير من أجل مستقبله... مستقبله الذي أحلم به والذي لو كان لي قدرة سحرية لقفزت به نحوه بسرعة الصاروخ... لجعلت منه وهو ابن التاسعة طالباً في الجامعة يحقق لي أمنيتي التي أعيش لها... بأن يكون محامياً... «قد الدنيا».

... كتم المختار تنهيدة بركانية كادت تنهمر دمعة، وهو يستفيق من انخطافته الذهنية السريعة على الصدى الذي يتناهى إلى سمعه كئيباً متهالكاً مثقلاً بالرهبة والخوف من المقدّر المخبوء:

حسان. يا حسـ.....سان. ن. ن.

* * *

لكزت الحاجة أم عثمان جارتها وهي تمسح بطرف منديلها عينها اليسرى المعطوبة وسألتها موشوشة:

ـ ألا تذكرين يا أختي، يا أم صبحي، مصيبة أبو علي العسراوي؟ كانت زوجته في ذلك اليوم المشؤوم تعود متأخرة من المطحنة. داهمها المساء وهي في منتصف الطريق، وكان همها أن تستحث همة الحمار العجوز وتستعجله قبل أن تشتد العتمة. غفلت عينها عن «عليّ» ـ يا كبدي عليها ـ. كانت تعتقد أنه يسير وراءها. لقد تعلق باذيالها في الصباح. حاولت أن تردعه ليبقى في البيت مع أخته، ولكن «المكتوب ما منه مهروب». ضعفت أمام دموعه، وأمام نظرة «أبو علي»، المتسامحة التي كانت تعني لها، «بسيطة خذيه معك يتفرّج عالمطحنة».

اختفى علي فجأة، وراحت أمه تدور حول نفسها كالمجنونة. تلطم وتولول وتلّوح بمنديلها وتطلب النجدة... ولم تأتها النجدة إلا بعد أن وصل الحمار وحده إلى المنزل، وحمله يكاد يسقط عن ظهره، فانشغل بال العسراوي. أنزل «الطحنة» عن ظهر الحمار وانتظر أكثر من ساعة. لم تصل أم علي ولم يصل علي، فدّب الصوت على القرية، وعبثاً قلبوا الدنيا كلها ولم يعثروا على الصبي.

كلنا اعتقدنا يومذاك يا أختي يا أم صبحي أن الجنّية التي تسكن

تلك المحلة هي التي خطفت الصبي. ولكن تبين أن الضبع هو الذي «سبعه» يبول الضبع على ذيله يا أختي ويرشق فريسته، فيفقد «المسبوع» إرادته ويلحق بالضبع إلى مغارته دون أية مقاومة... ويا حسرتي على «علي». بعد شهر بالتمام والكمال عثروا على عظامه في مغارة «الخلالي».

تململت أم صبحي، ومالت برأسها نحو الحاجة أم عثمان:

ـ يا اختي يا أم عثمان. الله يلطف بالمختار وابنه. أنا أخشى أن تكون الفعلة فعلة الجنّية. المحلة التي اختفى فيها حسان مسكونة كما تعلمين، والضباع لا تخرج من مغاورها إلا حين يتقدم الليل. هل نسيت كيف خطفت الجنّية التي تسكن في تلك المحلة بالذات ابنة حسين الحلباوي من ورائه، وهو على ظهر الفرس؟ الله ينجّينا ـ لقد ظهرت عليه وعيناها تشتعلان باللهب ومنخارها ينفث الدخان، وشعرها الفاحم يكنس الارض، وبأصابعها الطويلة كأصابع المذراة امسكت بعنق «البنية». انتزعتها من فوق السرج، ثم انشقت الأرض ـ يا رب تجيرنا ـ وابتلعت الإثنين معاً.

هرشت الحاجة أم عثمان رأسها بأصابعها التي كلسّها الروماتيزم:

ـ ولكن الحق يا أم صبحي على حسين الحلباوي... فلقد قالوا أن الجنّية تمخطرت أمامه أولاً، وذبّلت له عيونها وابتسمت، وعرضت عليه أن يتزوّجها وبدلاً من أن يحتال عليها ويلاطفها رفض واستعاذ بالله من شر الجن فأثار بذلك غضبها، ولهذا انتقمت منه.

* * *

كان الشيخ عبد المجيد يربض كالثور في زاوية من زوايا الدار، وينشر أذنيه الضخمتين كلاقطين شديدي الحساسية، فالتقط حديث العجوزين بكل تفاصيله، وبنظرة شديدة الاختراق، إلى ملامح المختار التي كانت تنقبض وتتقلص وتتلون كلما تناهى إليه صدى النداء: «حسان. يا حـ... سان. ن.» أدرك أن الفرصة قد سنحت للانقضاض.

لقد تجاهل الجميع قدره وسلطانه الروحي فلم يطلب أحد منه حتى الآن أن يتدخّل، ويظهر كراماته. تنحنح للفت الأنظار، ومسّد لحيته الغابة. مشطّها بأصابعه الغليظة وردد بنصف صوت مبتهل:

ـ يا لطيف يا ستار.

.... «لكش» معلم القرية جاره:

ـ عينك على العنكبوت...

فهمس الجار:

ـ لم تقل ليّ يا أستاذ حمدي لماذا تصرّون أنتم الشبّان في هذه الضيعة على تسميته بالعنكبوت...؟

قال المعلم بصوت كالهمس:

ـ لأنه كالعنكبوت ينسج شباكه ويقبع متربصاً في الظل، فإذا لاحت له المناسبة وثب عليها، وهو هكذا يتعيش باسم الدين الذي يتطفل عليه وهو لا يفقه منه شيئاً لأنه شبه أمي... لا يكاد يفك الحرف، ألا تتذكر انه لم «يتمشيخ» ويطلق الحرية للحيته إلا بعد أن لعب بعقله «مصعب» شيخ الخبثاء: «لقد حججت مرتين يا عزيزي... أطلقها واتكل على الله».

قطع الحوار الهمس صوت:

ـ يا شيخ عبد المجيد أين بركاتك وكراماتك؟ ولماذا أنت ساكت؟ وبماذا تشير علينا في هذا الموقف الصعب؟

سُمعت طقطقات سبحة الشيخ قبل أن يتململ ويتنحنح ثم ينطق باستعلاء وأستاذية وتبكيت مُضمر:

ـ يا بنيّ. لقد ابتعد الناس عن الله وما عادوا يؤمنون بقدرة كلامه، وبأصحاب البركات والكرامات.

ورد الصوت:

ـ حاشا لله يا سيدنا الشيخ. أشر علينا ونحن نطيع.

... همس المعلم في أذن جاره:

ـ نشر العنكوب الآن شبكته، فلنر ماذا سيعلق فيها.

... زأر الشيخ محتداً، وكأنه قد اطمأن إلى أنه أصبح وحده سيد القرار:

ـ آتوني حالاً بمقص، ففي مثل هذه الحال، لا بد من أن نبدأ بربط «حلقوم الوحش» لعل الكثيرين منكم يا أبنائي لا يعرفون ماذا يعني ربط حلقوم الوحش؟ أرأيتم إلى هذا المقص؟ سأفتحه واقرأ ما تيسّر من الأوراد والتعاويذ الشريفة المضمونة الفعالية والمختصة بمثل هذه المناسبة. ثم أتركه مفتوحاً، وبإذن الله لن يقوى أي وحش، سواء كان ضبعاً أو ذئباً أو أي كاسر ذي ناب، أن يؤذي عزيزنا وابننا «حسان». قد يقترب منه الوحش، أي وحش مهما كان ضارياً، ولكنه سيظل يدور حوله حتى يدوخ، وسيظل شدقه مفتوحاً لا يستطيع إطباقه لأنه ملجوم. إنه يصاب بالعجز المطلق فلا يستطيع بعون الله وقدرته أن ينال من الصبيّ مهما تكررت المحاولة وطال الزمن.

سكت العنكبوت هنيهة. أدار حدقتيه الواسعتين يستقرىء الوجوه، ولما قرأ فيها القبول والتسليم والتصديق بسمل وحوقل، وفتح المقص، وراح يمرر راحته اليمنى عليه بعد أن سكب عليها بضع قطرات من عطر شعبي رخيص، وبدأ يتمتم وهو مغمض العينين بكلام غير مفهوم، يقطعه بين الفينة والفينة اختلاج جسدي شامل، يعقبه تثاؤب طويل ناعس، شاء أن يختمه «مولانا العنكبوت» بهذا التحذير الصارم:

ـ حذار أن يمس أحد هذا المقص أو أن يغلق شفرتيه. يجب أن يظل هكذا مفتوحاً... إلى أن يرد الله علينا غائبنا العزيز.

... ساد الصمت الأسيان جو القاعة، وتركزت عينا العنكبوت على وجه المختار تبحثان في ملامحه عن ردة فعله. ولكن المختار، كما هو مشهور عنه، رجل لائق، ثم إنه في مثل موقفه الحالي، لا يمكن

أن يسمح لامتعاضه وتقززه أن يختلطا بتعابير الحزن والقلق التي تتزاحم في عينيه.

غير أن الحاجة أم صبحي لم تستطع أن تلجم تحمسها لبركات الشيخ، فتوسلت إليه بصوت راجف أن يفعل شيئاً ضد الجن على سبيل الاحتياط، فقد تكون جنّية «باب الحد» هي التي اختطفت الصبي، خاصة وأن لها، في هذا المضمار، سوابق معروفة.

. . . مطّ العنكبوت رقبته الغليظة مزهواً كديك سمين يتهيأ للصياح. حركها ذات اليمين وذات الشمال كما لو كان يمرن فقراتها على الطاعة، ثم بلع دفعة من ريقه وغمغم:

ـ حاضر يا حجة.

. . . أخرج على الفور علبة البخور من جيب داخلي في قمبازه، فالشيخ عبد المجيد يحمل دوماً عدته معه تحسباً للطوارىء، وهذا البخور الذي هو من عدة الشغل بخور خاص كما يؤكد، يجتذب الجن، ويجمعهم، ويتيح له أن يخاطبهم بلغة خاصة وأن يأمرهم.

الأشرار منهم لا يذعنون، وهو يعترف بذلك، ولكن «الأخيار» يطيعون هذه الأوامر، وقد لا يطيعونها، إلا بشروط وترضيات. . . غير أنهم في كل حال يناضلون لدفع أذى الأشرار والعصاة، وينجحون دوماً في تخليص «الأنسي» الذي يُقدر له أن يحظى بتدخل سريع من مولانا الشيخ.

ـ آتوني بوعاء نظيف وبقليل من الجمر، وإذا كانت الجنية هي التي اختطفت «حسان» فإن الأسياد عليهم سلام الله سوف يأتوننا به بعد أقل من ساعتين سالماً من كل أذى بقدرة الواحد الأحد.

. . . وجيء له بالوعاء والجمر، فذّر قليلاً من البخور، وانحنى فوق الوعاء يستدعي أمراء الجن بأسمائهم العجيبة. يهمر عليهم تارة، ويلين في مخاطبتهم تارة أخرى ويستعطف، يقطب ما بين عينيه ثم لا يلبث أن يحل العقدة ويأذن لأساريره أن تنفرج. . . كل ذلك والدخان يتغلغل في لحيته الخصيبة ويتوغل، ويقتحم منخريه المفتوحتين على وسعهما، ويحجب أحياناً عينيه ليموه نظراتها الثعلبية الماكرة، وجداول غزيرة من العرق الحار تنحدر من جبهته العريضة لتسيل على صدغيه الموشومين كشاهد على بلوغه درجة التوتر الروحي، وذروة الاندماج بالغيب، وكشاهد كذلك على جهده الجبّار الذي بلغ درجة الإجهاد، وأبصار العجائز التي تجثم في الدار كطيور الرخ مركزة عليه، شاخصة إليه، متعلقة بشفتيه، وفيها يمتزج الإعجاب بخشوع الإيمان، وصدق الورع بقلق الرجاء.

. . . وأخيراً تلفت الشيخ عبد المجيد كمن يفيق من غيبوبة. أسند ظهره إلى الجدار بقوة كأنه يمنعه أن ينقضّ. تنهد. قال إنه قد أدى ما عليه، وعلى الله والأسياد الباقي. . . وأنه في حالة إعياء روحي لا بد له معها من الراحة الجسدية كيلا يتعرض للأذى. تململ قليلاً ثم نهض مستأذناً وعيناه عالقتان باليد التي كانت تدس في جيبه الخلفية ما جاد به المختار الذي كان قد فشل تماماً في إخفاء اشمئزازه على الرغم من دقة الموقف وحراجته.

وفي الخارج كان الليل قد انتصف وازداد حلكة، وكانت المشاعل في سواعد الشبان المنطلقين في كل صوب قد بدأت تنوس، وأصداء النداء المنطلق من كل الجهات: «حسان. يا حـ. . . . . سان. ن. ن. »ما زالت تلوب في الوديان ثم ترتفع، وترتطم بالسفوح، وتنكفىء لتصب في بيت المختار حاملة المزيد من رعشة الرهبة، ووحشة الليل، ووجع الوساوس، وكثافة القلق المبّرح الأسيان.

صدر حديثاً

ايفي بريست

رواية المانية

تأليف: تيودور فونتانه

ترجمة: سناء كرم

هذه الرواية التي تعتبر رائعة فونتانه. الكاتب الألماني الشهير هي أيضاً إحدى روائع المدرسة الواقعية الألمانية. كما اعتبرها النقاد بمستوى «آنا كارانينا» لتولستوي و «مدام بوفاري» لفلوبير.

أما شخصية ايفي، شخصية تجتذب القارىء بتصرفها الطبيعي والعفوي، فقد نشأت في أجواء الحياة الريفية الحرّة والبريئة حيث أغرم بها البارون «انشتاين» وتزوّجها، وتذهب «ايفي» بصحبة زوجها إلى مكان بعيد عن بحر البلطيق، فتعيش في حالة فراغ دائم. وتنجرف هناك في علاقة مذنبة تجعلها تعسة. وقد شاء القدر أن يكشف زوجها عن علاقتها السرية، فكان أن انقلبت حياة «ايفي» رأساً على عقب. ونحن كقراء ندخل إلى صميم قلبها، نشاطرها أحزانها ونتعاطف معها. وبعد سنين من الشقاء والنفي، تتّصل من جديد بالطبيعة الجميلة، بفضل حياة حرّة تتصالح فيها مع نفسها ومع العالم. وفي النهاية تموت إيفي مذنبة بريئة.

منشورات دار الآداب